مجلة الرستمية ISSN 2716-9138
المجلد : 02 العدد : 01 السنة : 2021

" قراءة في الأسس النظرية و الفلسفية المؤسسة للنظرية الطبية الإسلامية، ابن رشد " نموذجا "

Reading THEORETICAL AND PHILOSOPHICAL ELEMENTS BASED ON THE ISLAMIC MEDICAL THEORY THE MODEL OF IBN RUCHD.

عقون مليكة [*]،

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية .جامعة معسكر. الجزائر[1]

mlika.agoune@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 12 – 05 - 2021	تاريخ القبول: 27 – 05 - 2021	تاريخ النشر: 01 – 06 - 2021

الملخص:

يعتبر ابن رشد فيلسوف العلم الذي أرخ لتطور الفكر العلمي، رؤية ومفاهيم ومناهج ،ومن ثمة الدور الذي لعبه في تصحيح وإعادة بناء المعارف الطبية ،بالصورة التي تجعل منها علما ،من خلال تعامله مع الطب اليوناني ،ممثلا في أعمال جالينيوس ،كما مثل كتابه الكليات الذي أسس لنهضة أوربا في مجال الطب "العصا القاتلة " التي أفسدت جميع الأطباء ،وظل شاهدا على الاتجاه العملي التجريبي في الطب الاسلامي لقرون عديدة ،إلى جانب . مؤلفات أخرى .

الكلمات المفتاحية: الطب ،الفلسفة ،الكليات ، ،جالينيوس ، ابن رشد .

Abstract :

Ibn ruchd is a philosopher of science who chronicled the evolution of scientific thought, see concepts and methods, and the role played in the correct and rebuild the medical knowledge, make note, through his dealings with Greek medicine, represented in the work galinios, like writing colliget who founded For the Renaissance of Europe in the field of medicine "stick" that messed up all the doctors and witnesses on the trial process trend in Islamic medicine for centuries, along with other composers.

Keywords: medicine, philosophy, Colliget, galinios, Averroes .

مقدمة:

إذا سلمنا جدلا بمكانة وفضل الفلسفة الإسلامية على الحضارة الإنسانية ،بما فيها الحضارة الغربية ،فمنذ القرن الحادي عشر الميلادي ،وما بعده كانت أوربا تتطلع للاستفادة من العلوم الإسلامية عبر حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ،إذ ترجم كتاب" الحاوي" للرازي ،وهو أحد المصادر الطبية المشهورة ،والمؤسسة لمدرسة الطب في باريس في القرن الرابع عشر ،كما تأسست سائر المدارس الطبية الأوربية في مونبيليه ،وأكسفورد ،ونابولي وغيرها على أساس الترجمة من العربية إلى اللاتينية ،ففي هذا السياق يشير أحد الكتاب الأوربيين إلى مساهمة التراث الإسلامي في الطب الحديث بقوله :" إنه قدر لأعمال ابن سينا أن تظل إنجيلا طبيا في أوربا...." (الغنيمي أبو الوفا.1996.15)، فعلى مدى قرون ظل الطب الإسلامي رافدا ورائدا

---

[*] عقون مليكة

في الجامعات الأوربية إلى غاية القرن السابع عشر الميلادي ،ورب معترض على هذا العطاء العلمي للمسلمين ،كونه تأسس على تجارب الأمم السابقة، فإنا نسند ذلك أولا ،وقبل ترجمة التراث اليوناني ،إلى المناخ العام السائد في مختلف حواضر العالم الإسلامي آنذاك ، فلم يكتفي يومها المسلمون بالنصوص الدينية ،أو توجيهات الطب النبوي فحسب ،بل تجاوزا ذلك إلى تراث الأمم السابقة يراجعونه ،بالبحث والنظر ،عبر ترجمته إلى العربية ،والسريانية ،فمن مدرسة الاسكندرية إلى مدرسة جند يسابور ،إلى الاشتغال على مؤلفات اليونان الطبية (أبقراط وجالينيوس)، إلى جالينيوس العرب "الرازي" ،إلى أمير الأطباء "ابن سينا" ،إلى مؤلفات ابن الفيس وابن رشد ،وابن ميمون...

بناءا على ما سبق نحاول أن نفصل في هذه المداخلة ،تفاصيل أسس المرجعية الفلسفية التي أسست الطب الإ سلامي موضوعا ،ممثلا في الطب الرشدي ، والذي شكل بدوره مرجعية ،ومصدرا استلهمت منه أوربا حضارتها منذ العصور الوسطى ،وبالتالي فإن إشكالية هذه الورقة تتمثل في : ماهية الكليات النطرية الدينية والفلسفية المؤسسة للنظرية الطبية الإسلامية لدى ابن رشد؟

- ماهو موقف الإسلام من الممارسة الطبية بصفة علمة؟

- كيف تعامل فيلسوف قرطبة ابن رشد الطبيب مع التراث اليوناني الطبي ممثلا في جالينيوس ؟ وهل أبدع في ذلك ؟ ماهي أهم أوجه التجاوز ؟ماهي الخصائص المنهجية التي ميزت ابن رشد عن غيره من الفلاسفة الأطباء؟ .

مدخل مفاهيمي حول الطب والفلسفة :

لعل غرضنا من ه ذا المدخل هو توضيح ومناقشة الاشكالية الواردة في هذه الورقة المتعلقة ببعض ا لمرتكزات الفلسفية للنظرية الطبية الاسلامية التي بنيت على أسس الطبيعيات اليونانية في بعض النماذج ،لذلك وجب علينا البدء بالمدخل المفاهيمي أولا لتحديد بعض المفاهيم قبل ذلك ،لا يسعنا في هذا المجال إلا أن نقر باعتمادنا على ثلاث مراجع رئيسة كانت حسبنا في إعداد هذا المقال ، أولها وهو كتاب الكليات لابن رشد دون شك ،وثانيها هو شرح أرجوزة الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب لابن رشد ،وثالث هذه المراجع التي لا تقل أهمية عن سابقيها وهو مؤلفات المرحوم عابد الجابري –رحمه الله-الذي كرمته اليونسكو ،كونه أكثر الباحثين اشتغالا على ابن رشد .

لقد بين لنا ابن رشد العلاقة بين الطب والعلم الطبيعي في كتابه الكليات ،فاعتبر أن الطب هو جزء من العلم الطبيعي (ابن رشد2013.24.) معترضا بذلك على تعريف جالينيوس الذي اتسم بعدم التمييز بين الطب ،والصحة والمرض كجزء من العلم الطبيعي ،فحسب ابن رشد ،فإن صناعة الطب تستلزم

معرفة الصحة والمرض وأسبابها وعلاماتها لحفظ الصحة ، وهو الأمر الذي غاب عن صاحب العلم الطبيعي جالينيوس ،الذي لم يقصد من معرفة الصحة والمرض سوى المعرفة في حد ذاتها.

أما عن العلاقة المنهجية بين الطب والفلسفة ،فإن صناعة الطب قد تنتفي مالم يكن صاحبها عارفا حاذقا بصناعة المنطق (ابن رشد.15.2011)،فالطبيب الفاضل في نظره هو فيلسوف بالضرورة ،والفيلسوف –في نظره -هو المحب الباحث في علوم الحق (ابن رشد.32.2011) ،أما فيما يتعلق بتعريفه للطب ،فإنه يحدده كالآتي :"...الطب هو صناعة فعلها عن العلم والتجربة :حفظ الصحة وابراء المرض .....ليس يكتفي في هذه الصناعة بالعلم دون التجربة ،ولا بالتجربة دون العلم ،بل بهما معا "(ابن رشد ..2011.2.3) ،،ثم يقول في موضع آخر في الكليات في فصل الغرض من صناعة الطب :" إن صناعة الطب هي صناعة فاعلة عن مبادئ صادقة ....كالحال في صناعة الملاحة وقود الجيوش "(ابن رشد.2013.31) ،وهو التعريف الذي تلقفه معظم الباحثين المحدثين الذين اشتغلوا على ابن رشد سواءا الغربيين أمثال (دانيال جاكار مديرة أبحاث في المعهد التطبيقي في باريس)أو الأكاديميين العرب أمثال:(المرحوم عابد الجابري) ،فتعريف ابن رشد للطب يعد تعريفا غير مسبوق لا يوجد ما يضاهيه حسب الجابري ،فعندما يشير ابن رشد في الكليات إلى تقسيم الطب إلى ثلاثة أجزاء حسب الموضوع ،والغاية منه ،ثم الوسيلة الملتمسة لتحقيق تلك الغايات و"لما كانت الصنائع الفاعلة ...،تشمل على ثلاثة أشياء ،أحدها معرفة موضوعاتها والثاني معرفة الغايات المطلوب تحصيلها في تلك الموضوعات ،والثالث معرفة الآلات التي بها تحصل تلك الغايات ..." فهذا التصور الرشدي للطب الذي يقسمه الى نظري وتطبيقي هو أقرب إلى التصور الحديث جدا للطب ، فـ هذا التصور والتقسيم الذي وضعه ابن رشد قد ورد كذلك في مؤلف كلود برنار (*3)"المدخل إلى دراسة الطب التجريبي الصادر سنة 1920)،رغم الفارق الزمني بين ابن رشد وبرنار إلا أن أهمية كتاب الكليات تظهر من خلال تأكيد ابن رشد على الأسس والمبادئ والمناهج ،والروح العلمية التي اتسم بها ابن رشد ،وكأن ابن رشد قد تنبأ بفلسفة العلوم في القرن التاسع عشر ،من حيث تلك القطيعة الابستمولوجية ،التي أحدثها ابن رشد مع المعارف الطبية السابقة . أما تعريف الصحة في كتابه الكليات فيحددها بكونها :"صناعة فاعلة عن مبادئ صادقة يلتمس بها حفظ صحة بدن الانسان ..." (ابن رشد.2013.31)، كما يعرفها كذلك ، بأنها :"حالة في العضو بها يفعل أو ينفعل على المجرى الطبيعي " (ابن رشد.2013.32) ، أما في شرح الأرجوزة الصفحة الرابعة فهي :"الحالة التي تكون عنها استقامة الأفعال " فالهدف العام من حفظ الصحة هو الوقاية أو التوقي مما ينبغي له أن يحدث ،وبصفة عامة فإن ابن رشد قد قرر في مقدمة الكليات أن الطب صناعة علمية فنية ،فغاية صناعة الطب في نظره هي :"حفظ بدن الانسان وابطال المرض ،وذلك بأقصى ما يمكن في

واحد واحد من الأبدان "(ابن رشد.2013 .32) ، بناءا على ذلك فقد قسم ابن رشد الكليات إلى سبعة أجزاء منها :

1-كتاب التشريح2-كتاب الصحة3-كتاب المرض4-كتاب العلامات الصحية والمرضية5-كتاب الأغذية والأدوية6-كتاب حفظ الصحة7- كتاب شفاء الأمراض أو هو علم المداواة وهو التقسيم نفسه الحديث والذي ورد كذلك في مؤلف كلود برنار السابق النكر ،على المنوال الآتي :

1-علم وظائف الأعضاء **(La physiologie).**

2-علم الأمراض**(La pathologie)** .

3-علم الشفاء.**(La thérapeutique)** ، (كلود برنار.5،7.1920 .نقلا عن الجابري) ،

لقد وصف مؤلف الكليات من طرف الباحثين الغربيين ب:"... العصا القاتلة ،التي أفسدت جميع الأطباء في أوربا..." (دانيال جاكار. ص 1997.1225.) نظرا للتصور الذي وضعه للطب كعلم خارج التقسيم التقليدي ،فضلا عن التجديد الذي أحدثه في ميدان التفكير العلمي في الطب ،من حيث المبدأ ،والمنهج ،وإعادة بناء المعرفة الطبية ، ف هو المصف الذي يمثل الأصول النظرية لعلم الطب ، والذي ظل شاهدا على الاتجاه العملي التجريبي في الطب الاسلامي ،إلى جانب مؤلفات أخرى وقبل الخوض في تجربة الطب الرشدي ،وجب علينا تفصيل الأسس المختلفة التي ارتكزت عليها النظرية الطبية الاسلامية .

الأسس الدينية:

لعل موقف الاسلام من الطب من حيث الموافقة ،أو المعارضة ،قد سار على ما قرره فقهاء المسلمين ،وصاحب الكليات ابن رشد أحد هؤلاء الفقهاء ،فليس بين الدين والطب أي تناقض يذكر ،بناءا على هدي المصطفى - صل الله عليه وسلم- فقد ورد في الحديث الشريف عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده :"من تطب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن "(أخرجه النسائي وأبي داود)،ومما ينسب الى الامام الشافعي-رحمه الله- قوله : "لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب" "(الغنيمي ،أبو الوفا.1981.ص100) ،لقد شرع الاسلام للمسلمين التداوي بالاستناد على أحاديث نبوية كثيرة –ليس المجال هنا لعرضها -،تدل عليها سيرة الرسول ص-قولا وعملا ،هذا الموقف عكس ما يتم تداوله لدى بعض الباحثين الذين يستندون على موقف ابن خلدون الذي ينفي دعوة الشرع ،والسيرة النبوية إلى التطبيب أو التداوي ،ففي الفصل الخامس والعشرين من المقدمة يقول ابن خلدون :"... والطب المنقول في الشرعيات ...ليس من الوحي في شيء ،وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ..."(ابن خلدون.2006،ص405)،كما يشير في نفس الفصل إلى أن ما ورد في الطب النبوي من ذكر أحوال النبي –ص- هومن قبيل العادة فالرسول بعث لتعليم الشرائع وليس لتعليم الطب ،وهو موقف قصور يؤخذ على ابن خلدون ،رغم الأدلة الكثيرة الواردة من طرف

العلماء وا لفقهاء والخلفاء ،فالطب النبوي ليس للتبرك أو للتدليل على صحة العقد الإيماني (ابن خلدون.2006.ص405) ،كما يزعم صاحب المقدمة ،بل هو دعوة صريحة ومباشرة للبحث وإعمال النظر فيما يحفظ النفس البشرية ،ويجلب المنافع ،وفي موقف لابن رشد الطبيب وهو الفقيه العالم ،عندما تعرض للتداوي بالمحرمات ،أفتى بجواز التداوي بشرب الخمر للضرورة :"... فإنه لصاحب هذه الحال في معنى الميتة للمضطر ،فلذلك فلتبادر وتعطيهم خبزا منقعا في شراب " (ابن رشد.2013،ص745) ،وهذا إن دل على شيء ،فإنما يدل على أن العلماء المسلمين لم يتوقفوا عند حدود هدي الطب النبوي بل قطعوا أشواطا كبيرة ،بعد الاحتكاك بتراث الأمم السابقة الذي أقبلوا عليه بحثا يتدارسونه بالنقد ،والترجمة والتأليف .

الأسس التاريخية والفلسفية ودور الطب اليوناني :

عند رصد الأسس الفلسفية للطب الاسلامي بصفة علمة ،وقبل الخوض في مسار الطب الرشدي ،علينا أن نقر أولا بتراكمية المعرفة عبر العصور ،فالطب -هو "علم " وتاريخ العلم كما يقول باشلار : "هو تاريخ أخطاء العلم " - ،وغيره من الفروع المعرفية الأخرى قد مر بمراحل مختلفة ،انطوت على تجارب الأمم السابقة ،لأن الحضارة في النهاية هي اسهامات الانسانية جمعاء ،في هذا السياق تجدر بنا الاشارة إلى أن مسار الطب الاسلامي الذي امتد عبر تسعة قرون من الزمن ،وما يزيد ، شكل ولايزال موضوعا للتقصي والبحث ، قد تأسس على تراث الطب اليوناني والحضارات الأخرى (الطب المصري القديم)،على حد سواء لذلك حري بنا أن نتساءل حول كيفية تشكل النظرية الطبية الاسلامية ومراحلها ؟وهل ثمة عوامل أخرى أطرت هذا التكوين وساهمت في صياغته بالشكل الذي نعرف ؟.

عند البحث في إفادة الطب الاسلامي من مؤلفات اليونان الطبية وجدنا أن ذلك قد تم خلال مراحل ،وليس دفعة واحدة ،وبغض النظر عن المرحلة الأولى على أهميتها وهي مرحلة النقل من علوم الأمم السابقة ،فإن المرحلة الثانية والمتمثلة في الترجمة ،و هي المحور الذي أسفر عن مرحلة الانتاج والابداع ،فمن المعروف أن حركة الترجمة تبناها بلاط الخلفاء في العصور الذهبية للحضارة الاسلامية ،وبعبارة أخرى فإن العامل السياسي قد لعب دورا حاسما في استقطاب العلماء والأطباء من المسلمين وغيرهم ،إذ شكل هو الآخر بمعية العامل الديني حافزا في تطور سائر العلوم في الحضارة العربية الاسلامية.

ابن رشد والكليات وجالينيوس -مرحلة الابداع والتجاوز :

لقد كتب الفقيه القاضي أبي الوليد ابن رشد على غلاف شرح أرجوزة ابن سينا في الطب ما يلي :" كان الطب معدوما فأوجده بقراط ثم مات فأحياه جالينيوس ثم عمي بصره حنين ثم تفرق وتشتت في البلاد ،فجمع شمله محمد بن زكريا الرازي ،قال القطب العلامة الشيرازي: ولابد أن يقال :كان الطب ناقصا فكمله ابن سينا " (ابن رشد.2011.ص7) تجدر الاشارة إلى أن العلامة الشيرازي أحد شراح القانون لابن

سينا ،لعل هذه العبارة على قصرها توضح لنا المصدر والأساس الذي تأسس عليه الطب الاسلامي بصفة عامة وابن رشد على وجه الخصوص ،والمتمثل في مؤلفات جالينيوس وأبقراط التي اشتغل عليها جل الأطباء المسلمين درسا وتنقيحا ومراجعة مثل :طبيعة الانسان لأبقراط ،تلخيص كتاب الاسطقسات ،وكتاب المزاج لجالينيوس من طرف ابن رشد وهي الكتب التي شكلت مرجعا لكتابه الكليات ،إذ يستشهد به في كذا مرة بقوله ... ومن الأشهر ما شهد به جالينيوس ،فإنه الرجل الموثوق والمجرب في هذه الصناعة ..."(ابن رشد.2011.ص22) ،والأمثلة كثيرة ،فابن رشد أحد الذين يقرون ويعترفون بالقيمة العلمية لجالينيوس ،فهو يرى مثلا أن الحذق في الطب بماهو صناعة ،إنما يكون بدراسة كتب جالينيوس :" فإن تعلمها (أي الصناعة الطبية) على المجرى الصناعي ،إنما هو في كتب هذا الرجل ،لكن في كلامه طول وربما كسل عنه كثير من الطلبة "(ابن رشد.2011.22). كما أنه يعترف بفضل جالينيوس وتجاربه وتفوقه على سائر الأطباء بمنهجه ،ولعل ذلك يظهر من خلال مناقشته له في مؤلفه الكليات من بدايته إلى نهايته ،إذ يستشهد به في الصفحات الأولى فيقول : "فمبلغ عظام الانسان على رأي جالينيوس مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما...."(ابن رشد.2013.ص40) ،وفي نهاية الكليات كذلك حيث يقول ابن رشد :"قال جالينيوس :وأعرف رجلا من الكحالين كان يجلس المريض على كرسي..."(ابن رشد .2013ص647) ،وهنا لابد من الإشارة إلى أن النظرية الطبية التي شيدها جالينيوس قد شكلت المادة العلمية التي اشتغل عليها ابن رشد في كتابه الكليات - colliget -، وبلورها ،فأبدع في إعادة صياغتها وتصحيحها وإعادة بناء معارفها.

وتتمثل هذه المادة العلمية في نظرية الأخلاط التي وجدت في كتابات منسوبة لأبقراط حوالي.. 370 ق. م مثل مؤلفه "طبيعة الإنسان"(بوعزة ساهل.نقلا عن موقع مغرس)، فالأخلاط الأربعة هي الدم والبلغم والمرة الصفراء والمرة السوداء. وكان ينظر إلى اختلال التوازن في هذه السوائل الطبيعية بالجسم باعتبارها السبب الجذري لأي مرض. وكانت المعالجة الطبية تقوم على تصحيح اختلال التوازن في الأخلاط من خلال وصف أنظمة غذائية وتمرينات والاستحمام والأدوية وفي بعض الأحيان إجراءات مثل الفصد. وكان جالينوس شديد الالتزام بهذه النظرية ودعمها مستخدما حججا فلسفية وملاحظات تشريحية وتجارب شخصية من معالجة المرضى ،لقد شكلت الباثولوجيا الخلطية الجالينوسية الأساس للأنظمة الغذائية والطبية في العالم . كما أنها سيطرت على كل الطب الغربي حتى القرن التاسع عشر.

خاتمة :

إذا كان كتاب الكليات لابن رشد ،قد حاز على قصب السبق والتفوق ،ليس بالنسبة للكتب السابقة فحسب ،بل واللاحقة أيضا ،نظرا لمستوى النقاش الذي تضمنه ،يقول الجابري :"فهو الذي كان يفزع إلى فتواه في الطب ،كما يفزع إلى فتواه في الفقه "(ابن رشد..1998.16) في مقدمة تحقيق الكليات للجابري .

ومهما قيل عن ابن رشد ،ومهما كان المنجز الذي حققه ابن رشد سواء بالنسبة للحضارة الاسلامية ،أو الغربية ،أو بالنسبة لكليهما معا ،فإن الاشكال الذي واجهنا بالأمس ،ولايزال يواجهنا اليوم ،وربما في المستقبل كذلك هو مدى عجزنا نحن عن اكتشاف تراثنا بأنفسنا ؟ فابن رشد ، وابن خلدون ،وابن سينا ،وابن الهيثم ،وابن تومرت ، والقائمة طويلة ،لا يكاد يوجد عالم أو مفكر أو مؤرخ أو فلكي ... إلا و قدمه الغرب لنا ،ولست أدري متى نتخلص من إعادة القراءة لمنجزاتنا التي اكتشفها غيرنا ؟ ونعتقد أنه سؤال لا يخلو من المشروعية ،فما يجب أن يكون هو أن نكون نحن أصحاب السبق في القراءة الأولى لهذا التراث ؟!.

المراجع المعتمدة :

- ابن خلدون. (2006):كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في كلام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ،دار الكتب العلمية .بيروت لبنان.

- ابن رشد(2013) : الكليات في الطب ،تحقيق عمار الطالبي وسعيد شيبان ،شركة دار الأمة للطباعة والنشر ،الجزائر.

--ابن رشد (2011): أرجوزة ابن سينا في الطب ،تحقيق عمار الطالبي ،شركة دار الأمة للطباعة والنشر ،الجزائر.

- الجابري محمد .عابد (2007): ابن رشد سيرة وفكر ،دراسة نصوص ،مركز دراسات الوحدة العربية .بيروت .لبنان

--دانيال جاكار (1997): تأثير الطب العربي في الغرب خلال القرون الوسطى ، موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج .3إشراف : رشدي راشد .مركز دراسات الوحدة العربية بيروت. لبنان.

Claude Bernard, Introduction à l'etude de la médecine expérimentale, Librairie

في الجابري ابن رشد ،سيرة وفكر وكذلك 235. انظرمقدمة تحقيق الكليات لعمار الطالبي Delagrave. Paris 1920. pp. 5-7 ص،15.

- المواقع الالكترونية:

-بوعزة ساهل :قراءة في كتاب النظر والتجريب في الطب الأندلسي بين ابن رشد وابن زهر: دراسة ابستمولوجية تحليلية . لمؤلف الدكتور محمد سرو. تاريخ الاطلاع :2019/03/10. https ://:www.maghres.com.

- الغنيمي أبو الوفا التفتازاني (1981): العلاقة بين الفلسفة والطب عند المسلمين ،أعمال المؤتمر العالمي الأول للطب الاسلامي ،الطبعة الثانية. الكويت..1981

تاريخ الاطلاع 2019/03/06 .www.mafalha.blogspot.com. .

-